هوية المدينة العراقية على المحك

أ.د. مضر خليل عمر

1 -التركيب الاجتماعي للمدينة

خلال عقد ثمانينات القرن الماضي ، عند دراستي للتركيب الاجتماعي للمدن الغربية ، في انكلترا ، وباعتماد الاحصاءات الرسمية ، و تحليل بياناتها بطريقة العامل البيئي Factorial Ecology ، الذي يثمر ثلاث ابعاد Dimension رئيسية : البعد السكاني (الديموغرافي) ، البعد الاقتصادي – الاجتماعي ، و البعد العمراني . اثمر التحليل تطابقا كبيرا بين مؤشرات المتغيرات الاقتصادية مع مؤشرات المتغيرات الاجتماعية لتشكل مع بعضها البعض بعدا واحدا (العامل الاقتصادي – الاجتماعي) ، و كذلك وجدت تطابقا مكانيا بين العوامل الثلاث المذكور آنفا . بعبارة ادق ، يعكس الوضع الاقتصادي للعائلة موقعها الاجتماعي ، وان مقدار دخل رب الاسره هو المعيار الاساس للتصنيف الاقتصادي – الطبقي ، وان هذا البعد (العامل) يتطابق توزيعه الجغرافي مع توزيعات عاملي التركيب الديموغرافي و المستوى العمراني بدرجة كبيرة . اي ، ان النمط العمراني المكاني يتطابق توزيع قيمه مع توزيع قيم النمطين الاقتصادي و السكاني مكانيا ايضا .

كنت اقارن ذلك مع نفسي ، حينها ، مع التركيب الاجتماعي للمدن العراقية ، و مدى تطابق هذه الابعاد فيها ، خاصة ، مع توزيع الدولة للاراضي للبناء السكني على اساس المهنة (المعلمين ، التجار ، المهندسين ، القضاة ، الضباط ، الادارة المحلية ، وغيرها) . وكنت اقارن السلوك الحضاري اليومي للموظفين ، وابنائهم مع اقرانهم ، وغيرهم من ابناء الشعب كنموذج لسلوك ابناء الطبقة و مستواهم الحضاري . قد لا تكون هناك فروقات كثيرة ، ولكن كان للقانون هيبة ، و للاسرة دور ، والمدرسة مازالت تمارس دورها بخير و مسئولية يعتد بها . كان للطبقة المتوسطة حضور واضح في ثقافة المجتمع ونشاطاته المختلفة ، ولعل ذلك لحجمها الكبير ودورها في ادارة دفة البلاد (اداريا وسياسيا) .

كان التركيب الاجتماعي للمدن العراقية (من وجهة نظري الشخصية) اقل حدة مكانيا من نظيره في المدن الغربية . ولكن ، بقي عندي شك في مدى تطابق المؤشرات الاقتصادية – الاجتماعية مع بعضها البعض ، و كذا الحال مع التركيب الديموغرافي ، و مع المستوى العمراني للمباني . فعوائل الموظفين (كلاهما في سلك التعليم على سبيل المثال لا الحصر) مستواهم الثقافي \ الحضاري متميز عن العوائل الاخرى ، التي قد يكون رب الاسرة بمستوى تعليمي متدني ولكنه يقوم بتشغيل ابنائه جميعا بمهن حرة ، وبهذا يكون دخل الاسرة اعلى بكثير و التركيب الديموغرافي مختلف (عدد اطفال اكثر) ، ولكن يقطن في سكن واطئ المعيار.

2 - ثقافة المدينة ومستواها الحضاري

يعكس سكان المدينة مستواهم الحضاري من خلال سلوكهم في الشارع ، وبما يمثلوه من حضارات ثانوية (فرعية) Sub-Culture ، ولكن تبقى كلمة الفصل لقانون الدولة . فهو المؤطر لثقافة المجتمع و المشكل لها ولمستواها الحضاري . اذ يرتبط بالتركيب الاجتماعي للمدينة الثقافات الفرعية للفئات التي تقطنها ، كل حسب اماكن سكناها ، من خلال السلوك الجمعي لكل فئة و مجموعة (عرقية ، دينية ، ..... الخ) . وبسيادة قانون الدولة ، و صرامة الحكومة في تطبيق القوانين تتشكل في المحصلة النهائية ثقافة المجتمع الاجمالية ، التي يعرف بها وتكون من سماته و المؤشرة لهويته الخاصة . وفي حال غياب هذه السيادة تبادر تنظمات وتشكيلات اجتماعية (العشائر) – سياسية (الطوائف والكتل وعشاق السلطة والتسلط) لتولي الامر وقيادة المجتمع و ابراز ثقافات منسية و تسيسها لخدمة مصالحهم الخاصة او لتنفيذ اجندة اجنبية .

وقد عرفت بغداد منذ اواسط القرن الماضي بتركيبتها الاجتماعية المميزة ، عبر عنها باسماء المناطق والاحياء السكنية : عكد النصارى ، عكد الكراد ، حي الصابئة ، وسميت مناطق بالمهن السائدة فيها (الكرادة على سبيل المثال لكثرة الكرود التي تسقي الارض) ، ومع كل هذا ورغما عنه ، بقيت كلمة بغدادي تعني مستوى حضاري معين ، وشخصية اجتماعية مميزة ، وحتى بين طلبة جامعات بغداد انتشر مصطلح (طلبة محافظات) الذي يطلق على من هم من سكنة محافظات العراق الاخرى وليس بغداد .

ليس للتركيب الاقتصادي اثر كبير في تشكيل الطبقة \ الفئة الاجتماعية في العراق ، في الوقت الراهن على الاقل . فمنذ عقد التسعينات و ما تلى ذلك بعد 2003 من صعود فئات ونزول اخرى بشكل سريع ومفاجئ ادى ذلك الى اضطراب اجتماعي واضح . عادة ، يترافق التغير الاجتماعي مع التغير الاقتصادي عندما يحدث ذلك تدرجيا ، (قبول نفسي – اجتماعي) ، حيث يسمح بالتاقلم مع الاوضاع الجديدة و التكيف مع متطلباتها الاجتماعية ، والسلوكيات المناسبة والمقبولة . ولكن عندما يحدث ذلك بشكل مفاجئ وبوتيرة متسارعة الخطى عندئذ تظهر موجات سلوكية غير معتادة و غير مقبولة من قبل الكثيرين .

فهناك من فقد الكثير بسبب تغيرالوضع السياسي او جراء مضاربة اقتصادية غير موفقة (سامكو على سبيل المثال) ، يقابله الكثير الذي كسب ما لم يكن يحلم به سابقا (مجموعة رفحاء على سبيل المثال) . يضاف الى ذلك هشاشة الحكومة و نقص في متابعتها لتطبيق القوانين على الجميع ، و اتساع دائرة غسيل الاموال للفئة التي قد اثرت ماديا فجأة بعد سنين عجاف ، كذلك انتشار المطاعم و النوادي و الكازينوهات المفتوحة للجميع . لقد كشفت هذه الاوضاع هزالة الارضية الثقافة \ الحضارية عند البعض للرؤية العيانية بدون تزويق او تعديل . فالشارع باثاثه وما يضمه من مرافق خدمية وسلوكيات غير منضبطة قد عكس بشكل جلي الواقع المؤلم لما وصل اليه الامر بعد الاحتلال .

مع انتشار المطاعم الفارهة ، وباسعار لا يتمكن عليها الموظف البسيط ، افترض (طبقا لما ذكر آنفا) ، مستوى اقتصادي \ حضاري معين لرواد هذه المطاعم . وافترض ان ذلك ينعكس من خلال المظهر ، و سلوك الابناء على وجه الخصوص . ولكني لاحظت ان الدشداشة (البيتية وليس الكشخة) مع (النعال) لرب الاسره وترك الابناء بدون رقابة او رادع هو المعمول به من قبل البعض . ولاحظت ايضا في المقاهي و المطاعم (الشعبية و الاخرى) ارتياد المراهقات و تدخين الاركيله وممارسات لا تدخل ضمن السلوك الاجتماعي المقبول . نعم ، لقد تغيرت المدينة جذريا ، فقد تداخلت استعملات الارض فيها ، وانتشرت المقاهي و المطاعم ، و كازينوهات التسلية ، و صغرت الوحدات السكنية طاردة سكانها الى الشارع ، وفقدت المدرسة دورها في التربية والتوجيه ، واصبح الجيل الجديد سائبا بدون رقيب ، تحت رعاية وتوجيه تجار المخدرات وسماسرة الدعارة (الرسمية وشبه الرسمية) ، فكانت هذه النتيجة المؤلمة .

كجغرافي معني بالتركيب الاجتماعي – الثقافي للمجتمع اتسائل مع نفسي : هل الفوضى غير الخلاقة اصابتنا في عقر دارنا ، فلم نعد نميز الاخرين من المظهر ؟ فلم اعد اقيم الاخرين في ضوء ما عرفته من دراستي سابقا (قل لي اين تسكن اقل لك من انت) ، ولا اتوقع سلوكا معينا من خلال المظهر الخارجي للشخص ، ولا اخمن المستوى الاقتصاي لقاطني الحي السكني من المستوى العمراني فيه . فالالوان قد تداخلت بشكل كبير ، وفقدت الطبقة الاقتصادية – الاجتماعية سماتها المميزة لها ، فضاعت الهوية التي كنت اعرف كيف احددها دراسيا و ميدانيا . لعل مرد ذلك الى انتشار الهجرة الى المدن و السكن العشوائي ، و وضع اليد على كل ما يمكن اخذه دون رقيب او حسيب . فهوية المدينة ، وثقافتها \ حضارتها قد انقلبت راسا على عقب . فالطابع الاجتماعي للمدينة لم يعد حضريا ، رغم شيء من الازدهار العمراني .

يبدو لي ان دهاقنة العولة (الدولة العميقة دوليا) يريدون ذلك ، ويسعون الى طمس الهويات الوطنية والغاء دورها كليا ، ومن اجل سيطرتهم على العالم فقد سخروا الانترنيت والاعلام لدعم الاقتصاد الراسمالي وتحقيق غاياته القريبة الامد والبعيدة المدى . ولا ينطبق هذا على الشعوب المغلوبة على امرها ، بل يرى سكان مدن الغرب انفسهم مراقبين من قبل الحكومة حتى في منازلهم نتيجة استخدام كامرات المراقبة في الشوارع و الاحياء السكنية ، و توثيق المعلومات الشخصية وتحديثها دوريا . فالعالم الان (بصريح العبارة) مستعمر بالكامل (مكانيا ومعنويا) من قبلهم وهم من يوجه سياساته المالية والثقافية والاجتماعية . فمدن العالم (الثالث \ النامي ، وحتى مدن الدول التي تعد متقدمة) تعاني من ممارسات سياسة Pig in the middle . هذه اصلا لعبة اطفال ، حيث يضعون خنزيرا صغيرا وسط ارض طينية (وحلة) و يلتفون حوله و يضربون بارجلهم ويصفقون بايديهم لاثارة رعبه ، الذي يبقى يدور يريد الخروج فيمنعوه ، وتستمر اللعبة الى ان يسقط من التعب وينهار كليا .

ونتيجة لسيادة العولمة و التطورات الراسمالية الراهنة فقد اضحت المدن متشابهة في الكثير من الجوانب والمعطيات ، واصبحت الدول (الكبرى قبل الصغرى) اداة تنفيذ اجندة صيغت منذ مدة غير قصيرة ، بعضها معلن وبعضها تكشف فقرات منه بين حين واخر . واتباع سياسات تجميع الشتات (قوميات و طوائف ودين) بقصد تسهيل عملية الهيمنة عليها وليس خدمتها وتطوير واقعها . وللبنك الدولي دور حاسم في عملية السيطرة على الشعوب و عرقلة تنميتها ، والتدخل في ادق تفاصيل سياساتها الداخلية في التعليم والاقتصاد و البناء . وحركة الهجرة والتهجير القسري دليل واضح عن دور الدولة العميقة في اعادة تشكيل العالم جغرافيا لتحقيق اهدافهم الاستراتيجية .

لقد انحسرت الطبقة المتوسطة امام اتساع ونمو واضح للطبقة الفقيرة ومن هم دون خط الفقر ، مقابل طفرة غير مسبوقة للاغنياء من المليارديرية . بعبارة اوضح ، لقد اعيد ترتيب الطبقات الاقتصادية – الاجتماعية وبالشكل الاتي : طبقة المليارديرية (متنامية الثروة والعدد) ، طبقة متوسطة (منكمشة على نفسها) تصارع لاجل البقاء ، طبقة فقيرة واسعة جدا ومتباينة كثيرا في تفاصيل فقرها واسبابه . نتيجة ذلك تراجع دور الطبقة المتوسطة (التقليدي) في رسم الملامح الثقافية للمجتمع ، و عزلت الطبقة الغنية نفسها عن بقية المجتمع لتقوده عن بعد (من بروج عاجية ، وقلاع محمية) ، و بقيت الطبقة الفقيرة تجتر ثقافة الفقر و تعمقها و تجعلها سمة للمجتمع الحضري .

3- تساؤلات مشروعة

فماهي هوية مدننا الان ؟ ومقارنة مع ما كانت عليه قبل نصف قرن ؟ هل انتبهنا لهذا التغيير الجذري ؟ الا يستحق ان يكون ذلك مادة للدراسة والتقصي العلمي ؟ ما هو اثر الجامعات المستحدثة في المحافظات العراقية على المدن : عمرانيا ، اقتصاديا (كاساس اقتصادي لمدن خدمية) ، اجتماعيا ، ثقافيا ، حضاريا ؟ بعبارة ادق : الى اية درجة قد تغيرت مدننا خلال نصف قرن من الزمان ؟ وماهي معطيات هذه التغييرات ؟ فنتيجة هوس العولمة نسينا ان نفكر بانفسنا (انقياد اعمى) ، وبقينا نلهث وراء المستجد في قشور الحضارة . هذا ما يريده مهندسو العولمة . فالاستعباد الالكتروني اقسى وامضى من الاستعباد السياسي والاقتصادي . لقد جزأت ثقافة العولمة العائلة و جعلتها راكعة امام الانترنيت ، وخانعة امام الاخبار التي تبث من خلالها السموم . لا عتب على سياسيي الغفلة فهم اميين اصلا ، طارئين على السياسة حتما ، و مجندين لتحقيق منهاج مرسوم مسبقا .